في الأدب الدرامي

٩ ـ الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الملهاة La comédie

تعريفها : الملهاة تمثيل حادث منتزع من الحياة العامية يبعث اللهو ويثير الضحك . وموضوعها الجهة الوضيعة من طبائع الناس وعادات المجتمع ونقائص الحياة . أما جهة الانسان الرفيعة ونكبات الدهر الفظيعة وجرائم الهوى السفيه فموضوع المأساة . ويخيل إلى أن الفرق بين الملهاة والمأساة لا يزال غير واضح ولا محدد ، فيحسن هنا أن نفصل القول فيه . فالملهاة تختلف عن المأساة في المبدإ والواسطة والغاية . فمبدأ المأساة حساسة الانسان وشعوره ، وواسطتها التأثير ، وغايتها الرهبة من الهوى المضل ، والرعب من الجرم الفظيع ، والرغبة في الخلق الكريم . وأما الملهاة فمبدأها خيبة الانسان وضعفه ، وواسطتها السخرية والضحك ، بأن تنظر إلى عيوب الناس نظرة الضاحك الساخر مادامت غير مؤلمة فتثير الرحمة ، ولا محنقة فتثير البغض . ولا مخطرة فتثير الفزع . ثم تصور هذه النقائص بمهارة ودقة ، وتستعين على تقوية هذه الصورة بالمفارقات والمفاجآت لتكون مثاراً للاستهزاء والضحك . ولا ريب انه كان أجدر بنا وأنفع لنا أن نقابل عيوب الناس بالرثاء الأخوي والنظر الفلسفي بدلاً من هذه الضحكة الهازئة ، ولكنهم وجدوا أن أقرب الطرق وأنجع الوسائل أن يستخدموا فساد بعض الناس في إصلاح فساد الآخرين ، كما تستخدم ذبابة الحجر من الماس في صقل الماس نفسه . وإصلاح العيوب بالعيوب هو غاية الملهاة . ومن الناس من يفرق بين الملهاة والمأساة بكيفية الأشخاص وكمية العواطف ، فيقولون إن أشخاص المأساة من طبقة الخاصة . وأشخاص الملهاة من طبقة العامة ، وإن درجة العواطف في الأولى قوية وفي الأخرى ضعيفة ، وذلك فرق لا يميز ولا يوضح ، لأن الآلهة والملوك قد يتخذون في بعض الأحيان أشخاص كما ترى في رواية (امفتريون) Amphitryon لموليير ، ولأن اليأس القاتل الذي استولى على بخيل موليير حينما فقد خزانة ماله ، لا يقل في درجته وشدته عن يأس فيلوكتيت[1] سوفوكليس حينما خطفوا منه سهام هرقل .

إن النوازل القادحة والمهالك الجائحة والعواطف الخارقة مزايا المأساة ودلائلها ، ولكن المنافع الخاصة والأخلاق العامة والعيوب الشائعة كيان الملهاة وخصائصها . فالأولى صورة من التاريخ ، والأخرى صورة من المجتمع ، والرذيلة لا تدخل في باب الملهاة إلا وهي مضحكة محتقرة . فاذا كانت ممقوتة مضرة دخلت في باب المأساة . فموليير جعل النافق المحتال شخصاً مضحكاً في (ترتوف) ؛ وشكسبير جعله شخصاً محزناً في (چلوستر) ، وذلك بالطبع راجع إلى طبيعة النفاق والخب في الحالين .

سبب الضحك في الملهاة : سبب الضحك هو خطأ حقيق أو ادعائي لا ضرر منه ولا تبعة له . فنحن إنما نضحك إذا لحظنا بين الشيء وبين الواقع اختلافاً لا يكون فيه مضرة لأحد .

فالرجل المفلس الذي يظن نفسه كفؤاً لأن يعلم الناس جمع الثروة ، والشيخ المتهدم الفاني الذي يتصابى في مشيته ، ويتظرف في لهجته ، يبعثان على الضحك ويستوجبان السخرية ، لأنهما يريان الأشياء على غير حقيقتها . والدمامة في ذاتها ليست مضحكة ، وإنما تصبح كذلك إذا ظن الدميم نفسه جميلاً ، أو رجا أن يظنه الناس كذلك . ولهذا السبب نفسه نضحك من اريجون بخيل موليير حين يطبق على خزانته ما يقوله له فاليز عن ابنته ، وكذلك نضحك من (سينالك) لابروير حين أخذ نعله وهو يحسبه كتاب القداس ، كما حدث لأحد إخواننا من المعلمين الكهول إذ وضع « دفتر

(١) فيلوكتيت مأساة شهيرة لسوفوكليس ، وعلم على بطل من أبطال طروادة النابهين . أوصى إليه هرقل عند موته بسهامه المسمومة . وبينما هو في طريقه إلى طروادة جرحه سهم منها . ونغل الجرح فنطت منه ريح منتنة لا تحتمل . فبرم به القوم وخلفوه وحده في جزيرة لمنوس فلبث فيها عشر سنين . فلما أعلنت الآلهة ان طروادة لا تؤخذ إلا بسهام هرقل عاد إليه أوليس وديوميد يبحثان عنه فيها ، فلما لقياه خطفا منه السهام وعادا إلى طروادة .

التحضير» فى شباك المرحاض بجانب قطعة بالية من قفة خوص .
ولما قضى أمره سها فأخذ (البرش) بدل الدفتر ، ودخل به الفصل فكركر التلاميذ فى الضحك من هذا السهو الغريب .

على أن حدوث السهو أو الخطأ من إنسان لا يكفى فى حدوث الضحك ، بل لا بد أن نلحظ ذلك الخطأ منه ، وندرك التباين بين فكرته عن الشيء ، وبين حقيقة ذلك الشيء نفسه . فاذا اتفق أن أحد الناس لم يفطن الى هذا الخطأ لفتور ذهنه أو قلة علمه بقى جاداً لا يضحك ولا يبتسم . وذلك سبب ما نرى من أن الشيء يضحك بعض الناس ولا يضحك البعض الآخر . ولا يلزم أن يكون الخطأ المضحك حقيقياً ، بل يكفى أن نراه نحن كذلك ، أو يتظاهر المضحك بأنه غلط فى شخص أو فى شيء . والمازح إذا أراد أن يمزح فانما يدعى الحماقة والسذاجة وهما مصدر السهو والخطأ . كذلك يجب ألا يكون لهذا الخطأ تبعة محزنة ولا نتيجة مشئومة كما ذكرت من قبل ، وإلا أثار الرعب والاشفاق ، بدل أن يثير الجذل والضحك . فيروب حين أخطأت فى ولدها فظنته قاتلاً ، وأرادت أن تقتله لم يضحكنا ماتفعل ، وإنما ملأ قلوبنا رعباً وخشية ؛ والمتكبرون لا يضحكون من أنفسهم إذا أخطأوا ، لأنهم يجدون فى هذا الخطأ خدعاً لكبرهم وإهانة لصلفهم فيتألمون .

ومنشأ الخطأ الذى يولد الضحك إما نقص فى الخلق ، وإما ضعف فى الذكاء ، وإما ظروف خارجة عن شخص المخطىء . والخطأ يستتبع فى أكثر الأحوال أقوالاً وأفعالاً تخالف المرعى من العادة أو العرف أو القوانين أو الذوق ؛ وتلك هى السمات التى تحدد لك أخلاق الملهاة . ففى ملهاة (المتوحش) لموليير تجد كل ما يقوله (ألسست) ويفعله مناقضاً للعادات الجارية ، لأنه فقد قوة الحكم على الأشياء ، فبالغ فى تقدير الفضيلة الى حد أن يرى فيما أجازه العرف وأمضاه خطوزة ليست فيه .

أنواع الملهاة : الملهاة ثلاثة أنواع : وهى الملهاة الاشكالية La comédie d'intrigue وتؤلف من الحوادث المضحكة الغريبة المتشابكة المعقدة التى تأخذ على المشاهد أنفاسه وتملك حواسه ، حتى تنتهى بحل مرغوب غير متوقع . فالحوادث روحها وقوتها . أما وصف العادات ، وتصوير الأخلاق ، فهما فى المحل الثانى منها ، كملهاة المريض الواهم ، والطائش ، والحضرى الشريف لموليير ، والملهاة الاجتماعية La comédie de moeurs وتؤلف من الهزؤ بخيال الناس وسخف المجتمع ، وتصوير ما أحدثته العادات السيئة فى الأخلاق من تشويه ومسخ ، وذلك فى طبقة خاصة وعصر معين . ويجب أن يكون كل شيء فيها مهيئاً ليظهر مع غيره عيباً من عيوب الاجتماع . فالحوادث تختار عن قصد لبلوغ هذه الغاية ، والظروف ترتب بدقة لأحداث هذا الأثر ، والفرد يكبر ويعظم حتى يتضمن الجنس بأسره ، والحوار يجرى على طريقة تبرز فكرة المؤلف واضحة فى كل خطاب وجواب ، كالمتحذلقات السخيفات لموليير ، ونصف العالم ، ومسألة النقود ، والأب المبذر ، لاسكندر دوماس الصغير . والملهاة الخلقية La comédie de caractére وهى تهاجم العيوب والنقائص المسيطرة على الأخلاق فى كل زمان ومكان ، وترعتها الى الافادة والامتاع أقوى منها الى السخر والاضحاك . كالبخيل ، وترتوف ، والمتوحش لموليير . وهذا النوع أنفع الأنواع الثلاثة وأقواها وأصعبها . فأما أنه أنفع ، فلأنه يرجع الى مصادر العيوب وأصولها فيهاجمها فى مبادئها ومناشئها ؛ وأما أنه أقوى فلأنه يقدم الى الناس المرآة فيخجلهم من صورهم ويضحكهم من أنفسهم ، وأما أنه أصعب فلأنه يطلب من المؤلف دراسة عميقة للأخلاق ، وبصيرة نافذة فى الملاحظة ، وخيالاً قوياً ليجمع شتات الملحوظات الكثيرة فى نقطة واحدة .

هذه هى أنواع الملهاة الثلاثة ، دون أن نعد منها تلك الأنواع التى تعتمد فى الأضحاك على النكات اللفظية ، أو على المواقف الخليعة المجونية ، فانها بضاعة الأذهان الكليلة ، والأذواق السقيمة . ولها مع ذلك اسم غير هذا الاسم وموضع غير هذا الموضع . على أن هناك نوعاً رابعاً هو أسمى من تلك الأنواع وأقوى . ذلك هو الملهاة المختلطة التى تستوعبها جميعاً . فتجمع الى هزل المواقف هزل الأخلاق والعادات ، فترى فيها الأشخاص مدفوعين بضعف عقولهم ، أو مرض قلوبهم الى أن يقفوا مواقف مخزية تعرضهم الى سخر المشاهدين واحتقارهم . كالموقف الذى وقفه أرباجون بخيل موليير مع ولده حينما أقبلا يتعاملان بالربا دون أن يعرف أحدهما الآخر ، فكانت مقابلة الأب المرابى والابن المبذر من سخريات الحياة وغرائب الأمور .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]